في ركب الوحدة العربية :

الأدب في فلسطين

للأستاذ محمد سليم الرشدان

— ٢ —

بين يدي ضروب النثر :

وقفت (في عدد مضى) عند فئة من السلف القريب ، الذين كانوا في مقدمة المنشئين للنهضة الأدبية (في فلسطين) ، والذين نعتبرهم الطليعة المغامرة في هذا الميدان . وفي (ما بين يدي) أتابع ما تقدم بأن أقول :

ويأتي بعد أولئك الأعلام الذين ذكرت ، جماعة قفوا على آثارهم، وساروا على غرارهم ، فكانوا أساتذة الأدب المبدعين . أنتجوا فيه خير إنتاج ، فكثر مقلدوهم بين شبابنا المتأدبين ، وما يزالون إلى اليوم خير أسوة يؤتسى بها . ولو ذهبت أتحدث عنهم مفصلاً لضاق بي المجال ، مهما رحب ، فهم (بحمد الله) في غير قلة ، وآثارهم أكثر من أن يشملها صعيد محدود . ولكنهم (من حيث الاختصاص) يكادون يسلكون مسلكاً عجباً ! فالأديب منهم لا يبعد أن يكتب في شؤون التربية أو التاريخ ، والشاعر لا يبالي أن يكتب في العلوم أو السياسة ، والمؤرخ لا يتورع أن يكتب في علم اللغة وآدابها ... ومن هنا تشابه الأمر علي واختلط ، ورأيتني ملزماً على أن أتجوز في معنى الأدب ، فأسلك في عداد الأدباء كل من ساهم في ناحية من النواحي الثقافية ، التي قامت عليها النهضة الأدبية الحاضرة وأعتبر هؤلاء الأدباء (على اختلاف مواضيع إنتاجهم) في فئتين ، فريق في (أهل النثر) وفريق في (أهل النظم) .

وسوف أتجنب (التفصيل والتطويل) في تراجم من أقدم بعض آثارهم علماً مني أن ذلك لا يعدو كونه مهاداً [1] Back ground يستقر خلف النحى الذي أهدف إليه ، وتكاد — إلى حد ما — لا تربطنا به علاقة مباشرة .

ثم إنني سأقتصر على ذكر من تركوا آثاراً أدبية — مخطوطة كانت أو مطبوعة — ممن تعرفت إليهم أو (وصلتني) آثارهم . فأبدأ بأعلام الفريق الأول (وهم الناثرون) فأذكر منهم :

الأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي (المقدسي) وهو شيخ الأدباء، (وأديب العربية الأكبر) من غير منازع . وله إنتاج أدبي غزير ، فهو ما يفتأ يطالعنا بتآليفه القيمة ، وأبحاثه التي لا ينقطع لها مدد . وبفضل نشاطه الذي لا يفتر أصبح علماً بارزاً في الأقطار العربية جميعها . ومن مؤلفاته المطبوعة (وهي كثيرة) :

الإسلام الصحيح : وهو سفر عظيم الفائدة كبير الحجم . فيه نقد وتحليل ، وفيه توضيح لكثير من الحقائق الغامضة ، ودحض لأشتات من الأباطيل التي سار عليها الناس أمداً طويلاً ، وهم يحسبونها في أصول الدين وما هي منه في شيء . وكل ما في هذا الكتاب رائع ، إلا أن أروع ما فيه تعليقه على كلمة « آل محمد (ص) » ومبلغها في ثنايا الحقيقة والتاريخ .

(١) أرى أن (مهاداً) خير ما تعرب به هذه الكلمة . وإن خالفني في ذلك صديقي الأديب الأستاذ عبد الحميد يمين ، وله حجته التي يركن إليها في هذا الخلاف .

وإنك لن ترى للعلم شيئاً يحققه كأفواه الرجال
فلا تأخذه من صحف فتُرمى من التصحيف بالداء العضال

ولم يهج شاعرٌ أبا حاتم السجستاني بأشد مما قال فيه :

إذا أسند القومُ أخبارهم فإسنادُه الصُّحف والهاجس

ومن طرائف أبي نواس قوله في أبان اللاحق :

صحَّفتْ أمك إذ سمَّـــتك في المهد (أبانا)
قد علمنا ما أرادتْ ! لم ترد إلا (أتانا) !

وتهكم بأحد المبخلين فقال :

رأى (الصيف) مكتوباً فظن بأنه لتصحيفه (ضيف) فقام يوائبه

وهجا سيف الدين بن المشد عواداً فقال :

عوادُنا قد طُمست عينُه فصار بالتصحيف (قوَّادا)
ما عاد إلا لقيـــاداته لأجل ذا سُمِّي (عوادا) !

قال صاحب مطالع البدور : قلت : وإن كان حصل له عمى فأحسن ! !

(البقية في العدد القادم) محمود عزت عرفة

ومن كتبه الأخرى : (كلمة فى اللغة العربية) و (البطل الخالد والشاعر الخالد) و (الثورة السورية) ثم (الثورة العراقية) .

ومن كتبه التى لم تطبع — بعد — وما تزال قيد بحثه وعنايته : (أبو العلاء المعرى) و (أمالى النشاشيبى) و (نقل الأديب) .

ولهذا الأستاذ أسلوب يكاد يكون وقفاً عليه . وهو يم على سعة اطلاعه ، وكثرة ما استوعب فى ذاكرته من مفردات هذه اللغة الكريمة . ومن ذلك قوله فى (اللغة العربية):

« اللغة هى الأمة ، والأمة هى اللغة . وضعف الأولى مقرون بضعف الثانية ... واللغة ميراث أورثه الآباء الأبناء ، وأحزم الورثاء صائن ما ورث ، وأسفههم فى الدنيا مضيع .

وإنا (أمم اللسان الضادى) لعرب ، وإن لغتنا هى العربية ، وهى الإرث الذى ورثناه . وإنا لحقيقون — والآباء هم الآباء ، واللغة هى تلك اللغة — بأن نقى عربية الجنس وعربية اللغة ...

ولو كان المورثون صغاراً ، ولو كان الميراث حقيراً لوجب علينا إكبارهم واعظامه . فكيف والتاريخ يقول : إن الآباء كانوا كراماً ، وإن الآباء كانوا عظاماً ... والزمان يقول إن العربية خير ما صنعت يداى (وإن الدهر لصنع) ، وإنها لخير طرفة أطرفها الناس . والزمان بالخير (وإن جاد) شحيح .

فالعربية الصنع العبقرى للدهر ، والعربية الدرة اليتيمة أو كنز الزمان (ضن به كل الضن ثم سخا) ... » .

والأستاذ أحمد سامح الخالدى (المقدسى) : وهو أبو التربية فى فلسطين . فلقد أنفق شطراً غير قصير من عمره فى مزاولة التوحيد الصحيح والتربية المجدية بين ناشئة الجيل عندنا ، بل بين النخبة من هذه الناشئة ، فى (الكلية العربية) التى يتولى عمادتها .

وله اليوم طلاب عديدون فى طول البلاد وعرضها ، نهلوا من علمه الغزير ، وساروا على النهج الذى رسم لهم خطته ، حتى أصبح فيهم من يشاطره حمل هذا العبء الذى تفرغ لحمله ، وبزامله فى الميدان الذى يعمل فيه .

ولم يكتفى الاستاذ (الخالدى) بالتوجيه العملى . ولذا فقد فزع إلى التوجيه النظرى ، فألف فيه كتباً عدة . ليأخذ بنصوصها هؤلاء الذين حرموا نعمة التخرج على يديه . وأذكر منها الكتب التالية : (أركان التدريس) و (إدارة الصفوف) و (أنظمة التعليم) و (طرق التدريس المثلى) ثم (رسالة اختبار الذكاء) . وهى الأولى من نوعها فى العربية .

ولم يقف الأستاذ عند هذا المدى ، بل تخطاه لما عداه . فشرح وأخرج كثيراً من المخطوطات القيمة ، التى لها علاقة مباشرة ببلاد الشام — وفلسطين قسمها الجنوبى — ومنها : (رسالة ترغيب الأنام فى سكنى الشام ، لعز الدين السلمى . و (فضائل بيت المقدس) للواسطى ، و (مثير الغرام بفضائل القدس والشام) لأبى محمود المقدسى . و (الاعلام بفضائل الشام) للغيثى .

والكتاب الأخير منها صدر منذ أيام ، وهو الآن فى متناول الأيدى . وفضلا عن المقدمة القيمة التى أوضح الأستاذ فيها أموراً مبهمة ، فضاعف بذلك قيمة الكتاب التاريخية . ثم الموجز التاريخى (الذى اتبعه بها) فى سرد تاريخ سورية (الطبيعية) فى القرنين السادس عشر والسابع عشر للميلاد . فانه أضاف إليه ملحقاً فى تراجم الصحابة والتابعين (الذين نسبوا إلى الشام أو نزلوا أو استشهدوا أو ماوا فيها) . فجعله بذلك مرجعاً قيماً للباحثين فى هذا السبيل .

وله (فيما عدا ذلك) كتب أخرى فى العلوم العقلية والأدبية وفى أبحاث شتى . ومنها : (الحياة العقلية) و (أقنعة الحب) و (خفايا النفوس) و (رحلات فى الديار الشامية) .

كما أن له سفراً قيماً — ما يزال بين كتبه المخطوطة — وهو (تاريخ المعاهد الاسلامية) . وقد أولاه (ويوليه) الكثير من عنايته . ويقع فى ثمانية مجلدات ضخمة ، يتناول فيها تطور الثقافة عند المسلمين والعرب فى سائر معاهدهم التى أنشأوها فى الشرق والغرب (ما خلا الأندلس) . ثم كيف كانت هذه الثقافة توجه لأغراض شريفة وأهداف سامية .

وهو الآن يكاد يفرغ من كتاب جديد — لعله أول كتاب فى بابه — وعنوانه : (الأردن فى التاريخ الأسلامى) .

وأسلوب الأستاذ فى سائر مؤلفاته سلس بين ، خال من التعقيد والتصنع . فاسمعه حين يصف (التعليم) فيقول :

« التعليم فن ، والمعلم فنان ، وكما ينحت المثّال من الحجر الأصمّ تمثالا بالشكل الذى يريده ، فيصوغ منه ما يشاء من رموز الحياة ومعانيها ، حتى ليخيل إليك أن الحياة تنبض فيه ، كذلك يفعل المعلم !

غير أن المواد التى يعالجها المعلم مواد حية ، حساسة شاعرة متأثرة ، تدفعها ميول وغرائز ، وبواعث شديدة التأثر والانفعال : مواد هى أرق ما صاغته يد الخالق ، قابلة للتكيف ، تابعة لسنة التطور ، نامية فيها حياة وقوة .

هذه المواد ، وهذه الوديعة الثمينة — التى يعهد بها إلى المعلم ، وتترك إلى عنايته — هى الطفل ... » .

ثم الدكتور إسحق موسى الحسينى (المقدسى): وهذا العالم الدؤوب — بالرغم من أنه يتخطى عضارة العقد الرابع من سنيه — ما يزال يفاجئنا بين الفينة والفينة بسفر قيم ، أو مشروع يرمى إلى إحياء الأدب أو تنشيط النهضة الثقافية .

ولقد صدر له إلى اليوم مؤلفات يخطئها الحصر وهى — إلى جانب ذلك — لطيفة الحجوم ، إلا أنها (رغم ذينك) غزيرة الفائدة ، يحدثك كل وجه فيها عما اقتضاه إعداده من تحر وتدقيق ، واستقراء وتحليل . ومن هذه الكتب :

(مذكرات دجاجة) وقد صدر فى سلسلة (اقرأ) . ونال الجائزة الأولى لاتفاق القراء على تفضيله ، و (عودة السفينة) : وهو مجموعة مقالات ترمى إلى هدف واحد ، هو العودة بهذه الأمة إلى ماضى عهدها المجيد ، وأيامها اللامعة المشرقة .

كما أن له كتباً مخطوطة ، ما يزال فى سبيل إعدادها . منها كتاب جامع عن (ابن قتيبة) وفيه دراسات وافية لآثاره ، وسفر كبير عن (الجامعات الاسلامية) يتناول فيه تاريخ نشوئها والأسباب التى كانت تدعو إلى ذلك . والدكتور فى أسلوبه يميل إلى البساطة واليسر ، وملاحقة المعنى دون المبنى . وإليك نمطاً من ذلك قوله فى كتابه (عودة السفينة) :

« إن العالم باقٍ وإن اختلفت مذاهب الناس فيه ، وإن التهمت الحروب كل عام الملايين من سكانه . بل ما دام فيه إنسان واحد .

. وهذا الانسان لن يفنى . إنه سيعيد سيرة جده آدم ، وسيبدأ العالم من جديد ...

ولهذا يجب أن نؤمن إيماناً لا يتزعزع بوجودنا وبعودتنا ، وعلى الذين يغمرهم الجزع فى الحاضر أن يلتفتوا مرة إلى الماضى ومرتين إلى المستقبل ...

إننا لن نلقى على الماضى إلا نظرة واحدة ، أما المستقبل فله منا نظرتان . وإننا لنعلم أن الوقت لا ينتظرنا حتى نبدأ من حيث انتهى آباؤنا ، ومن حيث ابتدأت الأمم الراقية . سنبدأ من حيث انتهت ، وسنأخذ من كل جديد نهايته ، وسنغرف من الحضارة الأوربية ما يطلق مواهبنا إلى غاياتها ، وما يبعث تراثنا من جديد ...

أجل : إننا سنعود إلى القمة حيث كنا ، وستعود السفينة إلى شاطىء السلامة باسم الله مجراها ومرساها ... » .

(له تكملة)

محمد سليم الرشدان

(ماجستير فى الآداب والقانون السامية)

إدارة البلديات العامة

تقبل العطاءات بإدارة البلديات العامة (بوستة قصر الدوبارة) لغاية ظهر يوم ٢٨ / ٩ / ١٩٤٦

عن توريد أدوات لاستراحات المجالس

وتطلب الشروط والمواصفات الخاصة بذلك من الإدارة على ورقة دمغة فئة الثلاثين مليما مقابل مبلغ ٥٠٠ جنيه ٥٠٠ مليم للنسخة الواحدة عدا أجرة البريد ٥٨٩٩